# إدوارد سعيد

أثره في العالم... وفينا

# الـــراحـــل... دائـــمـــــــــًا

□ سنان أنطون

«إننا في صميم العالم، مهما صرخنا بأننا في البرج العاجي»

«المثقف كالناجي من سفينة تحطّمتْ. فهو يتعلّم كيف يعيش مع الأرض، لا عليها. يجب ألاّ يعيش كروبنسون كروزو، الذي كان هدفُه استعمار الجزيرة الصغيرة، بل كماركو بولو، الذي لا يخطئ حسّه بالعجيب، والدائم الترحال.»

«الكونيـــة تعني المخـــاطرة. وذلك لكي نتجاوزَ اليقينَ السهلَ الذي نكتسبه من خلفيتنا ولغتنا وجنسيتنا، والتي تَحْجبنا، في الغالب، عن حقيقة الآخرين.»

«لا أحد يَكْتب لنفسه فقط. فهناك دائمًا الآخر. وهذا الآخر سيحوِّل التفسيرَ إلى ممارسةٍ اجتماعيةٍ مرتبطةٍ بنتائجَ وبجمهور.»

**إدوارد سعيد**

### ما بعد سعيد

كنا نناقش مقاربات المستشرقين للشعر الجاهليّ، وذلك في حلقة دراسية في أُولى سنوات الدكتوراه، ونتجادل بشأن أحكامهم والأسسِ الإيديولوجية التي كانت قراءاتُهم تتعكّز عليها. واستَشهد أحدُنا، كالعادة، بإدوارد سعيد وبجوهرته **الاستشراق**، ذلك النصِّ الذي زَلزل حقلَ دراسات الشرق الأوسط وأَسقط أوثانَ الاستشراق وكهنته من عروشهم، فاتحًا لنا ـ نحن الذين جئنا بعد صدوره ـ أفقًا معرفيًا جديدًا، وواهبًا إيانا ترسانةً ضخمةً مازلنا ننْهل منها وسنظلّ. انتهزتُ الفرصةَ لأسأل أستاذي، والمشرفَ على أطروحتي، عن رأيه الشخصيّ بسعيد. كنتُ أتطلّع إلى هذه الفرصة منذ زمن. فالرجل، الذي أكنّ له عميقَ الاحترام وأَجلُّ إحاطتَه بالتراث العربي الإسلاميّ ومعرفتَه الموسوعية بكلّ ما له علاقة باللغة والأدب العربييْن، نتاجُ المؤسسة الاستشراقية ذاتها التي حَطَّم أسسَها إدوارد سعيد، ويكاد يكون من الرعيل الأخير ممن تلقَّوْا علومَهم على الطريقة الكلاسيكية، كما أنَّه أحدُ محرّري **موسوعة الإسلام** الضخمة. لكنه كان يختلف عن النموذج التقليديّ بحبه واحترامه العميق لثقافات الآخر، وكذلك ـ وهذا هو الأهم ـ بوعيه بالتبعات السياسية والأخلاقية للإنتاج المعرفيّ وتورُّطِ المعرفيّ أو الأكاديميّ بالسياسيّ والعلاقة الجدلية بينهما. وهذا ما كنتُ ألمسه من قبل، لكنّه تأكّد لي عندما قال يومها: «ما كتبه سعيد غايةٌ في الأهمية. كان يجب أن يُكتب. وأنا أتفق معه في كلِّ ما قاله.» ثم أضاف: «لكنّ المشكلة الوحيدة هي أنّني لا يمكن أن أسمّي نفسي مستشرقًا بعد اليوم!» وكان بذلك يشير إلى تغيّر دلالات مصطلح «الاستشراق» ومكانةِ المستشرق في الخطاب الثقافيّ بعد ظهور كتاب سعيد، وربْطِهما بكلِّ ما هو سلبيّ وعنصريّ، وكَشْفِ تورُّطِهما بالخطاب والممارسات الإمبريالية وما تلاها من تمظهرات.

إنّ تغيير معاني ودلالاتِ مصطلحٍ ما هو إنجازٌ بحدِّ ذاته. لكنّي أسُوق هذه الواقعةَ البسيطةَ لرمزيتها، وكمدْخلٍ للحديث عن الثّورة المعرفية التي أَضْرمها سعيد بمفرده. قد يَعْرف الكثيرُ من القراء والقارئات العرب إدوارد سعيد كناقدٍ وناشطٍ سياسيّ دافَعَ باستماتةٍ وحتى الرمق الأخير (حَرْفيًا لا مجازيًا) عن القضية الفلسطينية، وحارب من أجلها في خنادق الغرب الثقافية. لكنّهم قد لا يَعْرفون ما يكفي عن سعيد المفكر الكونيّ والناقد الثقافيّ، الذي وُلد منه سعيد الناقدُ والمحلِّلُ والمحاربُ السياسيّ. كم ذرفنا من دموعٍ ساعةَ رحيله، وهناك المزيدُ الذي ينتظر. لكنّ أجملَ احتفاءٍ بسعيد هو المحافظة على التركة الثّمينة التي خلّفها لنا، وعلى الرأسمال الفكريّ والرمزيّ الذي أهدانا إياه، وذلك بالتعمق فيه وقراءته وتطبيقه. وما أحوجَنا، اليومَ بالذات، إلى الترسانة الفكرية التي فَتَحَ هو أبوابَها، خصوصًا ونحن نَدْخل في غياهب إمبراطوريةٍ جديدةٍ ونَغْرق، في الوقت ذاته، في ظلاميات محليةٍ، متحالفةٍ ـ بوعيٍ أحيانًا، وبدونه في معظم الأحيان ـ مع مشروع الإمبراطورية الجديدة. وهاهنا يأتي دورُ المثقف (والناقد) العلمانيّ الذي كان سعيد أروعَ مَنْ جَسَّده في كتاباته وفي ممارساته، وكان النموذج الذي دعا إليه في محاضراته ومقالاته.

### العالَم، النصّ، الناقد

لا يتَّسع المجالُ هنا إلا لإطلالة بسيطة ومقتضبة على مشروع سعيد النظريّ، الذي أَنجب حقلاً معرفيًا جديدًا ونظريةً بأكملها هي ما سُمّي بـ «دراسات ما بعد الاستعمار.» وسأكتفي بتأمل عنوانٍ وفكرةِ أحد أهمّ كتبه: **العالم، النصّ، الناقد**. إنّ تأملاً بسيطًا كهذا يمكن أن يكون نافذةً نرى من خلالها إلى شذرات من مشروعه الثقافيّ وبعض تضاريسه المتميزة. إضافةً إلى أنّ الأفكار العظيمة غالبًا ما تتميز ببساطتها وسلاستها!

# الثقافة و الإمبريالية

يبقى الجبروت الثقافيّ شريكًا وصنوًا للجبروت الإمبرياليّ كما علّمنا سعيد

إدوارد سعيد

ترجمة
كمال أبو ديب

دار الآداب

إنّ العلاقة الجدلية بين هذه المقولات الثلاث التي عَنْوَنَ بها سعيد كتابَه المذكور، ومقدارَ الثقل الذي تعطيه أيٌّ مقاربة نقدية لكلٍّ منها، سيحدِّدان بالضرورة المسارَ الذي تتخذه عمليةُ إنتاج المعنى وما يترتب على ذلك من نتائج أخرى فيما بعد.

يبدأ سعيد من «العالَم» بقصدية، للتذكير ـ بل للتشديد ـ على وجود النص وقارئه (أو ناقده) في هذا العالَم، وعلى كونهما تحت تأثير القوى والمؤسّسات التي تكوِّنه وتعيد إنتاجَه، وللتذكير أيضًا بارتباطهما الوثيق بها. فلا مفرّ من العالَم ومن التاريخ والتاريخانية.

إنّ مقاربة النصّ، لأيّ نصّ، في فراغ، مستحيلة. وإذا تمت، أو خُيِّل لامرئ ما أنّها تمت، فإنّ إقناعَ (أو بالأحرى تضليلَ) الناقد والقارئ بإمكانية إتمام قراءة كهذه هو في حدّ ذاته فعلٌ سياسيٌّ يحاول إخفاءَ ارتباط النصّ بسياقه التاريخيّ والسياسيّ، ويحاول من ثم التعامي عن مسؤولية الناقد.

وهكذا تظلّ العلاقةُ الجدليةُ الفوكويةُ بين السلطة (التي تتمظهر في المؤسسات ويعاد إنتاجُها من خلال خطابها وممارساتها) والمعرفة، وتبقى هي حجرَ الأساس في مشروع سعيد. لقد ظلّ يركّز على مفهوم «العالمانية» worldliness حتى في أوج الحقبة التي انجرف فيها الكثيرون والكثيراتُ نحو النصّ والنصانية، في قراءاتٍ أهْملتْ أو تجاهلتْ حقيقةَ وجودِ النص وعمليةَ القراءة نفسها في سياقات تاريخية وسياسية، وارتباطَهما (النصّ والقراءة)، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بمؤسسات وخطابات معينة. وبذلك تمّ التغاضي عن مساهمتهما في إعادة إنتاج هذا الخطاب أو ذاك، وعن مسؤولية عمليتَي القراءة والنقد وخطورتهما. وتكتسب مواقفُ سعيد أهميةً خاصةً في هذا السياق عند مقارنتها بالاتجاهات العدمية للتفكيكية التي انتقدها أكثرَ من مرة. فلقد رأى سعيد أنّ «النصانية الصرفة ستعيد النقدَ إلى حيّز الغامض والدينيّ،» وهو ما يناقض النقدَ العلمانيَّ الذي ينادي به والذي «يتعامل مع الظروف المحلية والعالمية ويقف ضدّ إنتاج النُّظُم.»

ولعلّ ما يميِّز سعيدًا أيضًا هو نجاحُه في الموازنة بين مقولتي «النصّ» و«العالَم،» وإعطاءُ كلٍّ منهما حقّها من دون تحجُّر أو تسطيح. فرفضُ النصانية الصّرفة لا يعني أبدًا السقوطَ في فخّ المقاربات الماركسية الفجّة. هنا يذكّرنا سعيد في مقدمة **الثقافة والإمبريالية** بأنّ «الإيديولوجيا والطبقة والتاريخ الاقتصاديّ لا تحدِّد، مسبَّقًا، وبصورةٍ ميكانيكيةٍ، الكتّابَ. لكنّ هؤلاء الكتّاب هم في صميم تاريخ مجتمعاتهم، يؤثِّرون فيه ويتأثَّرون به بدرجات متفاوتة. إنّ الثقافة والصيغ الجمالية التي تتضمنها تنبع من التجربة التاريخية.»

قد يقول قائل إنّ مقاربةً كهذه، بالرغم من توازنها، قد تضحّي ببعض القيم الجمالية في النصوص بالنظر إليها على أنّها محضُ تمظهرات لهذا الخطاب أو ذاك. وقد يقول إنّ مقاربةً كهذه تصادِر براءةَ النصوص. لكنّ الأمر أعقدُ من هذا بكثير. إذ لا تَمْنع المقاربةُ النقديةُ للنصّ الأدبيّ، وكشفُ تورطِه وارتباطِه بالتاريخ الاجتماعيّ، الاستمتاعَ به ولا تقديرَ جماليته في الوقت ذاته. «إنّ المثيرَ في الأدب، وفي كلّ شيءٍ آخر، ليس نقاءه، بل المدى الذي يَمْتزج فيه بأشياء أخرى كثيرة!»

## الناقد/المثقف كرحّالة

يبقى التحدي الأكبر هو أنْ يظلّ الناقدُ /المثقفُ يقظًا ومترصدًا لكي لا يتحجّر ويُضْحيَ أسيرَ خطابه أو أسلوبه ونظريته. ولكنْ هل هناك موضعٌ يوتوبيّ لا يقع في مدار هذه السلطة المعرفية أو تلك، أو تحت سطوة هذا الخطاب أو ذاك؟ هل هناك حيّزٌ لا تعيد فيه مؤسسةٌ ما إنتاجَ نفسِها وعلاقاتِ القوة التي تصنعها؟ بالطبع لا. لكنّ الوعي النقديّ اللامساوم هو الذي سيمكّن الناقدَ من الحفاظ على الاستقلالية النسبية ومن ألاّ يصبح مجردَ ببغاء للسلطة ـ سواء كانت سلطةً معرفيةً أو سياسيةً أو غير ذلك. وما أجملَ تشبيهَ سعيد المثقف (النقديّ الحقيقيّ) بماركو پولو: فعليه أن يظلّ ضيفًا في الأقاليم الإيديولوجية والنظرية، يسجّل مشاهداتِه، ويُعْجب بما يتعرّف عليه، ويقارنه بمشاهداته الأخرى، ولكنْ من دون أن يستوطِنَ ويؤسِّسَ مملكةً، وإلاّ هَمَّشَ واضطَهَدَ أو أَسْهم في ذلك. لذلك فإنّ عليه دائمًا أن يشدّ الرحالَ إلى آفاق أخرى، ويكتشفَ، ويعيدَ الاكتشاف من جديد. فالسفنُ الإيديولوجيةُ تتحطّم، والآلهةُ ـ بكلّ أنواعها ـ دائمًا تفشل. والثابت الوحيد هو التغيّرُ والاكتشافُ المستمر والبداياتُ الجديدة.

يقودنا ماركو پولو والآلهةُ الفاشلةُ إلى مفهوم المثقف العلمانيّ الذي استلهمه سعيد من ڤيكو (وغرامشي). فهناك الزمنُ الدينيّ، زمنُ الآلهة والأصول: وهناك الزمنُ العلمانيُّ التاريخيُّ، الذي

يَصْنعه الإنسانُ ويسيِّره ويعيش فيه. ومهمة المثقف العلمانيّ، حسب سعيد، هي: «إظهارُ غيابِ الأصل الدينيّ من جهة، وإظهارُ الحضور المعقَّد للحقيقة التاريخية من جهة أخرى. إنّ التغيير العلمانيّ هو تحويلُ غيابِ الدين إلى حضور الحقيقة.»

قد لا يروقُ البعضَ هذا الكلامُ، وهذا حسن. فـ «آخرُ ما يجب أن يقوم به المثقفُ هو أن يَجْعل جمهورَه يشعر بالراحة. بل عليه أن يُحْرِج ويَنقضَ ويكونَ مزعجًا.» وهذا ما علَّمنا إياه سعيد.

## المايسترو في الأداء

كان سعيد الموسيقيّ متبحّرًا في عوالم الموسيقى، عزفًا ونقدًا وتأمُّلاً. ولعلّ المرء يَشْعر بتداخل الموسيقى في كتاباته وأسلوبه. فنراه في كتاباته كالمايسترو: يُسمعنا صدى فيكو ونيتشه وغرامشي وفوكو وآخرين، متنقّلاً بينهم بخفة. محظوظون أيضًا أولئك الذين تسنّى لهم أن يروْا سعيدًا ويستمعوا إليه وهو يلقي محاضراته؛ فقلّما وُجِدَ متكلِّمٌ له ذلك الحضورُ الجارفُ والأداء الرائع. لقد كان الأداء لا يقلّ روعةً وأهميةً عن القول، بل يَعْكسه ويبلوره. سلاسة وأناقة في الأسلوب، مقرونتان بشراسةٍ في الدفاع عن أفكاره في مواجهة الأسئلة، ولاسيّما الخبيثة. شراسة تَنْبع من الإيمان بالعدالة. كان شامخًا على المنبر، كما في النصّ، يُشْعرك برهبةِ الحقيقة، ويُحْيي الأمل.

إنّ الإمبراطورية الأمريكية التي طالما انتقدها سعيد هي الآن في عقر دارنا، بكلّ جبروتها العسكريّ الوحشيّ، وبالخطاب الرثّ الذي استخدمتْه إمبراطورياتٌ أخرى من قبل وحَلَّلَ سعيد تمظهراته في الأدب الغربيّ. لكنّ خطورة هذه الإمبراطورية الجديدة تَكْمن في أخطبوطيتها واستشرائها في نخاع الحياة اليومية لسكّان العالم بأكمله، بصيغٍ وبدرجاتٍ مختلفة. يبقى الجبروتُ الثقافيّ شريكًا وصنوًا للجبروت الإمبرياليّ والاستعماريّ، كما علّمنا سعيد. فمع القصف المباشر بالقنابل والصواريخ، ثمة قصف آخر هائل بالنصوص المرئية والمسموعة والمقروءة، وكذلك بالسلع (التي تعمل عملَ النصوص في اللاوعي). وهذا القصف يَسْبق ويهيِّئ ويواكِب ويرسِّخ القصفَ الآخر. إنّ شراسةَ وشراهةَ هذه الإمبراطورية الجديدة تعنيان أيضًا تعدُّد ساحات المقاومة بكافة أشكالها، في «العالم» وفي «النص.» وعلينا، كمثقفين ونقّاد، أن نبقى في خضمّ الاثنين، وعيًا وممارسة، مثلما كان سعيد.

أما التطرف الظلاميّ المحليّ فهو أكثرُ ظلامًا من قبل. وبين هذا التطرُّف وتلك الإمبراطورية أنظمةٌ تتسابق في تقديم فروض الطاعة للإله الجديد، وتتفنن في سحق مواطنيها. هذا هو العالم كما أراه اليوم. وربما أراه بهذا الوضوح، وأؤْمن بضرورة النقد المزدوج والمقاومة، لأنّ تركة سعيد جزءٌ أساسيّ من تكويني الفكريّ والنقديّ، كعراقيّ. ولا بدّ لي هنا من أن أعرِّج على الحملة التي شنّها أحدُ المتثاقفين الذين يروِّجون اليوم للمشروع الأميركيّ ويعملون رسميًا مع وزارة الدفاع الأميركية. وكان قد شنّها منذ أكثر من عقد، وأعاد اجترارَها آخرون ضدّ سعيد مؤخّرًا، فاتّهموه ـ زورًا ـ بالسكوت عن جرائم صدّام! والذي يعرف القراءةَ ويكلِّف نفسَه متابعةَ تاريخ كتابات سعيد يَعْلم أنّه لم يفوِّتْ فرصةً إلاّ وندّد فيها بطغيان صدّام ووحشية نظامه، مثلما فعل مع كلّ الأنظمة العربية. والمفارقة أنّ سعيدًا كان يفعل هذا قبل عقديْن من الزمن، عندما كانت قوافلُ المثقفين العرب والأجانب تتسابق على موائد صدّام ومهرجاناته التي رَفَضَ سعيد حضورَها، وعندما كان هؤلاء الأقزام غارقين في صمتهم! لقد كان سعيد معارضًا، بالغريزة، لكلّ سلطة مهما كان نوعها ولونها. نقرأ في **العالم، النص، الناقد**: «على النقد أن يكون ضدّ أيّ شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والعسف، ويجب أن يكون هدفُه الاجتماعيّ هو إنتاج المعرفة التي تَهْدف إلى الحرية الإنسانية.»

سيسجِّل له العراقيون باعتزاز دائم وقوفَه في كتاباته ضدّ الدكتاتورية وضدّ الحصار وضدّ الحرب، وبوضوح وثبات شامخيْن. ومثل نجمٍ بعيد، قد يكون إدوارد سعيد ميتًا إلاّ أنّه سيظلّ يضيء هذا الليل.

**دارتموث (الولايات المتحدة)**


**سنان أنطون**

كاتب عراقي شاب، وهو في صدد إنهاء أطروحة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة هارفرد. يدرّس في دارتموث كولدج. صدرتْ له مؤخّرًا رواية عن دار الآداب بعنوان **إعجام**